تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر؛ مع نقد وتعليق

— ٤ —

٥ً — القمّي المفسر :

وممن بحث هذا الموضوع في هذا العصر القمي حسن بن محمد (٣٢٨) المفسر وقد سبق أن ذكرنا أنه يعالج الموضوع على طريقة المتكلمين أكثر مما يعالجه على طريقة المفسرين . وكان مثالاً لغيره من المفسرين الذين وسعوا ميدان علم التفسير باستمداد بعض براهينهم من علم الكلام وعلم الفلسفة ، وأشرنا الى الفرق بينه وبين الطبري في بحث هذا الموضوع .

وذكر عبد العليم الهندي (في مقالته السابقة) أن القمي يؤكد بأن طبيعة هذه المعجزة يمكن فقط أن تعرف ولا يمكن أن توصف شأن القطعة من الذهب الصافي أو جمال الوجه . وكل شخص ـ في رأيه ـ يقول غير هذا وينكره ويحاول أن يبرهن أن الإعجاز كان بالصرفة أو الخروج عن أنواع الكلام المعروفة أو الخلو من التناقض أو الإخبار عن الغيب هو مخطئ مطلقاً .

٦ً — الواسطي الأديب المتكلّم :

يؤلف في هذا العصر أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (٣٠٦) كتاباً في إعجاز القرآن اليماني يقول فيه : إن القرآن معجز بالنظم . والكتاب مفقود . ولم أجد من تكلم عن فكرة المؤلف بالتفصيل . وذكره الرافعي فلم يزد على أن قال إنه قد سبق عبد القاهر الجرجاني الى التأليف في هذا الوجه من الإعجاز وإنه أول من جود في هذا المذهب ـ أي مذهب أن القرآن معجز بالنظم ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم تبعه الرماني (٣٨٢) وأنه ـ أي الواسطي ـ بسط القول فيه على طريقتهم في التأليف . وذكر الرافعي كما ذكر عبد العليم الهندي أن الجرجاني شرح كتاب الواسطي شرحاً كبيراً سماه « المعتضد » وشرحاً أصغر منه وذلك قبل أن يضع كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » . ويعقب الرافعي على ذلك بقوله : « ولا نظن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ كما بنى عبد القاهر في دلائل الإعجاز على الواسطي » . ومن الواضح أن الرافعي يدلي بحكمه هذا وليس بين يديه كتاب الواسطي (إعجاز القرآن للرافعي ص ١٥٣) . ولا ندري علامَ اعتمد الرافعي في قوله بأن الواسطي هو أول من جوّد في هذا المذهب .

٧ً ـ الرمّاني الأديب المتكلم :

وممن ألف في الاعجاز في هذا العصر علي بن عيسى الرمّاني وقد ذكر كتابه صاحب الفهرست ومنه نسخة في استامبول حصل على نسخة منها عبد العليم الهندي وقال (في مقالته السابقة) : إنه سيطبعها قريباً .

وقد ذكر الرافعي أنه المؤلف الثالث الذي ناصر قضية الأسلوب والنظم بعد الجاحظ والواسطي وقال إنه بذلك رفع الرأي درجة ثالثة . (إعجاز القرآن للرافعي ص ١٥٣) .

وذكر ابن سنان الخفاجي (في كتابه سر الفصاحة) رأي الرماني في الاعجاز فقال إن الرماني جعل مراتب الكلام في تأليفه ثلاثاً : متنافراً ومتلائماً في الطبقة الوسطى ومتلائماً في الطبقة العليا والقرآن كله متلائم في الطبقة العليا وذلك بيّن لمن تأمله والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى ويفهم من هذا أن الإعجاز عند الرماني يقوم على تلاؤم الألفاظ .

وذكر يحيى اليمني صاحب الطراز رأي الرماني في الإعجاز (كتاب الطراز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ليحيى اليمني ج ٣ بحث الإعجاز ، في نقد المذهب السابع ووجوه الإعجاز) فقال عند نقده مذهب القائلين بأن القرآن معجز ببلاغته : « وإن أرادوا أنه بليغ بالإضافة الى معانيه دون ألفاظه فهو خطأ لأنه صار معجزاً باعتبار ألفاظه ومعانيه جميعاً ، وغالب ظني أن هذا المذهب يحكى عن أبي عيسى الرماني » .

ونرى من هذا أن صاحب الطراز قد ألبس علينا الأمر فلم يتضح من جملته أي مذهب مذهب الرماني في إعجاز القرآن من حيث البلاغة ، أهو مذهب أن البلاغة في المعاني دون الألفاظ ، أم في الألفاظ والمعاني معاً فضلاً عن أنه بنى قوله على غلبة الظن فلا يمكن الاعتماد عليه .

وذكر السيوطي (الاتقان ج ٢ ص ١٩٨ وما بعدها) رأي الرماني فقال إن الإعجاز عنده بالصرفة والإخبار عن الأمور المستقبلة ونقض العادة وقياسه بكل معجزة وإنه فسر نقض العادة باتيان القرآن بطريقة مفردة من النظم خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق بها كل طريقة وتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام وفسر قياسه بكل معجزة بما معناه أنه أدى إلى ما أدت اليه المعجزات من عجز الناس عن الإتيان بمثلها .

ونجد أن السيوطي من بين من ذكروا رأي الرماني هو أقربهم من الصواب في معرفة رأيه . فعبد العليم الهندي لخص رأيه (في مقالته السابقة) فذكر ما ذكره السيوطي وزاد عليه أيضاً أنه معجز لأنه لم يعارضه شخص برغم الدواعي الكثيرة والحاجة الملحة والتحدي العام ثم لاتصافه بالبلاغة التي يمكن إدماجها تحت اسم النظم الحسن الذي ذكره السيوطي .

وقال عبد العليم الهندي بعد أن أورد رأي الرماني : « ونرى هنا كيف أن الرماني جمع بين حجتي الأسلوب والصرفة اللذين ينفي الواحد منهما الآخر وهذه النقطة في التعارض قد ضاعت على مرور الزمن وأصبح يمكن أن يوضع نظريتان متعارضتان جنباً الى جنب » . ثم قال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« ويعرض ـ أي الرماني ـ في مسألة الأسلوب هذا السؤال وهو : كيف يستطيع المرء أن يكتشف أن أسلوب القرآن فوق طاقة البشر ؟ وأول جواب على هذا أن ذلك يتعلق بذوق الشخص والذين حصلوا على ذوق قويم في الأسلوب العربي هم وحدهم قادرون على التأكد من ذلك وأما العامة والأعاجم فلا يستطيعون التأكد من هذه الحقيقة وإنما يعتمدون على آراء أولي العلم » .

ونلاحظ في رأي الرماني في الإعجاز اتجاهاً جديداً وهو جمعه لكثير من النظريات التي قيلت قبله ، فهو لا يأخذ بناحية وينقد الأخرى أو يرفضها بل يقبل كل ما قيل في الأمر على علاّته فكأنه في هذا يوفق بين الآراء المختلفة كما نلاحظ أن تركه مسألة الحكم في المفاضلة بين الأساليب إلى الذوق الأدبي وحده دليل على نضج ذوقه في البيان وحسن فهمه للأدب .

٨ ـ الخطّابي :

ويأتي بعد الرماني معاصره الخطابي (٣٨٨) وهو ممن جمع بين الكلام في البلاغة وعلم الكلام وألف كتاباً في الاعجاز . توجد منه نسخة في ليدن وذكر رأي الخطابي في البلاغة وذكر الرأي نفسه السيوطي قبله في الإتقان ؛ قال السيوطي : (الاتقان ج ٢ ، ص ١٩٨) وقال الخطابي : « ذهب الأكثرون من علماء النظم الى أن وجه الإعجاز فيه من جهة البلاغة لكن صعب عليهم تفصيلها وصفوا فيه الى حكم الذوق ثم بذكر ما مؤداه أن كلام القرآن جمع بين المتضادّين الجزالة والسهولة ليكون آية للنبي وإنما عجز العرب عن الإتيان بمثله لأنهم لا يستطيعون أن يحيطوا بالألفاظ في العربية وتأدية المعاني في وجوه الكلام المختلفة وأن القرآن جمع جمال الألفاظ الى حسن النظم وسموّ المعاني مجموعة في كلام واحد هو كلام العليم القدير ولم تجتمع في غيره » ثم يعدد ما تضمنه القرآن من المعاني المختلفة بالتفصيل وبخاصة إخباره عن الغيب والأمور المستقبلة . ومن الجميل في رأيه قوله : « وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو صنيعه في القلوب وتأثيره فى النفوس فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرغ السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ذوي الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه اليه . قال تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » وقال : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » .

ونلاحظ على الخطابي أنه جمع بين أقوال مختلفة قيلت في القرآن ولكن بعضها لا يناقض بعضاً ويدل جمعه إياها على معرفة عميقة بجمال الكلام وبالبلاغة الحقيقية . وفهمه لها قريب مما نفهمه نحن الآن من صفات الأدب الرفيع : معانٍ سامية وأسلوب محكم جميل وعاطفة قوية تؤثر في القلوب . وقد أنقص من صفات هذ الأدب عنصر الخيال وربما كان ينحلّ عنده فيدخل قسم منه في المعنى وقسم منه في الأسلوب فيكون مفهومه عن البلاغة قريباً جداً من الكمال .

٩ً — العسكري :

يرى أبو هلال العسكري أن إعجاز القرآن ببلاغته ولذلك ارتأى ضرورة دراستها . قال ابوهلال (البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ، الخولي : ص ٢٨) : « البلاغة إنما تدرس لأن إغفالها يؤدي إلى عدم وقوع العلم بإعجاز القرآن على وجه استدلالي تعليلي والقول في ذلك بالتقليد غير مقبول عنده ولا لائق لأنه قبيح بالفقيه المؤتم به والقاريء المهتدى بهديه والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه وبالعربي الصليب والقرشي الصريح ألاّ يعرف إعجاز كتاب الله إلا من الجهة التي يعرفها الزنجي والنبطي وأن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبي » .

وكتاب ابي هلال في الحقيقة كتاب أدبي لم يخصص لفكرة الإعجاز وإنما ليبان بعض فنون البلاغة وبيان ما يحتويه القرآن الكريم منها وما يحتويه الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولهذا لا نرى له رأياً صريحاً عن الإعجاز في هذا الكتاب وإنما يستنتج من المقدمة كما قلت أن الإعجاز عنده قائم على البلاغة .

* * *

نقد وتلخيص :

نلاحظ على مؤلفي هذا العصر (الرابع الهجري) ممن ذكرت آراءهم في الإعجاز آنفاً أنهم لم يأتوا بجديد في الموضوع وإنما دخل ميدان المعركة فيه والكلام عليه طائفة المفسرين فتحدث الطبري عن الفكرة ببساطة وبما يستدعيه فن التفسير من القول وتكلم القمي المفسر كلام المفسر المتأثر بعلم الكلام ثم نرى في هذا العصر ظاهرة جديدة لم تكن واضحة في القرن الثالث وهي أن الأدباء أصبحوا يؤلفون كتباً مستقلة في البلاغة تعنى بالإعجاز وكان مؤلفوها ممن تأثروا قليلاً أو كثيراً بعلم الكلام كالواسطي والرماني والخطابي أو أدباء خلّصاً كالعسكري على حين كان الجاحظ في القرن الثالث أديباً ومعتزلياً .

ثم نرى المتكلمين كالأشعري والتوحيدي وبندار الفارسي قد ثابروا على طرق البحث كأسلافهم من قبل كما نشهد هذا العصر لم يخل ممن رموا بما نسميه الآن حرية الفكر كالمتنبي الذي لم ينسب اليه فقط عدم اعتقاده بإعجاز القرآن بل رمي في حداثة سنه بادّعاء النبوة ومحاولته معارضة القرآن .

القرن الخامس الهجري :

يمتاز هذا العصر بوفرة المتكلمين والمؤلفين في مسألة الإعجاز ويعدّ بحق عصرها الذهبي ولا عجب فإن هذه المسألة جزء من الحركة الفكرية العامة ومظهر من مظاهرها ، وقد نضجت في هذا العصر العلوم الفلسفية والعقلية بعد أن انقضى دور الترجمة والنقل وانتقل العرب والمسلمون إلى دور الهضم والانتاج كما نضجت العلوم والفنون اللغوية والأدبية . وأشهر من اتهم بالمعارضة فيه قابوس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابن وشمكير أحد ملوك الديلم، وابن سينا الفيلسوف ، وابو العلاء المعري الأديب المفكر المتفلسف . وأشهر علماء الكلام الذين بحثوا هذه المسألة فيه اثنان من الشيعة هما الشريف المرتضى وداعي الدعاة وثلاثة من رجال السنة هم الباقلاني وكان أديباً أيضاً وابن سراقة وابن حزم الأندلسي . وأشهر الأدباء اثنان من رجال البيان : ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني وكان من علماء الكلام في أهل السنة أيضاً . وسنورد كلمة في كلّ واحدٍ منهم على الترتيب .

١ً — قابوس بن وشمكير :

قيل بأن قابوس بن وشمكير (٤٠٣) عارض القرآن وقد ذكره عبد العليم المندي في جملة من اتهموا بالمعارضة ودافع عنهم بما سبق أن ذكرته قبل . وممن ذكر اتهام قابوس بالمعارضة ودافع عنه الرافعي حيث يقول : « وزعم هؤلاء الملحدة أيضاً أن حكيم قابوس بن وشمكير وقصصه (وهو شمس المعالي قابوس ابن وشمكير ، من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان ، وكان أديباً مترسلاً) هي من بعض معارضته القرآن وكأنهم يحسبون أن كل ما فيه أدب وحكمة وتاريخ وأخبار فتلك سبيله وما ندري لمن كانوا يزعمون مثل هذا . ومثل هذا قولهم : إن القصائد السبع المسماة بالمعلقات هي عندهم معارضة للقرآن بفصاحتها » . وليس بين أيدينا ما يثبت هذه المعارضة .

٢ً — ابن سينا :

وقد اتهم في هذا العصر ابن سينا (٤٢٨) بمعارضة القرآن ولم يصلنا ما يستأنس به من نبإ ما اتهم به وقد ذكر الرافعي هذا بدون أن يشير إلى مصدره فقال : « ومن أعجب ما رأيناه أن بعضهم اتهم ابن سينا بمعارضة القرآن لأنه زنديق وأنّ ابن سينا وضع رسالة في دفع هذا الافتراء . قلنا وأين ابن سينا من طور سيناء هذا رجل و هذا جبل (؟) ولكنها عصور الجدل والمكابرة » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٣ – أبو العلاء المعري :

زعم بعضهم أن أبا العلاء المعري (٤٤٩) قد عارض القرآن بكتاب سماه «الفصول والغايات في محاراة السور والآيات» وأنه قيل له ما هذا إلا جيد غير أنه ليس عليه طلاوة القرآن فقال حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة وعند ذلك انظروا كيف يكون ... ومما جاء في كتابه قوله : «أقسم بخالق الليل والريح الهابة بليل بين الشرط ومطالع سهيل إن الكافر لطويل الويل وإن العمر لمكفوف الذيل تعدّ مدارج السيل وطالع التوبة من قبيل تنج وما إخالك بناج». فلفظة ناج هي الغاية وما قبلها فصل مسجوع فيبتديء بالفصل ثم ينتهي الى الغاية وهذا كما ترى عكس الفواصل في القرآن الكريم لأنها تأتي خواتم لآياته .

وينفي الرافعي التهمة عن المعري لأنه أبصر بنفسه وبطبقة الكلام الذي يعارضه وأعرف بضعفه فهو يستعمل الكلمات الغريبة ويتعثر في الأسلوب ويراغم اللغة الخ فليس مما يعارض به القرآن ولأن المعري أثبت إعجاز القرآن فيما أنكره في رسالته على ابن الراوندي فقال :

«وأجمع ملحد ومهتد وناكب عن المحجة ومقتد أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد (ﷺ) كتاب يبهر بالإعجاز ولقي عدوه بالإرجاز ما حذي على مثال ولا أشبه غريب الأمثال ما هو من القصيد الموزون ولا في الرجز من سهل وحزون ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهنة ذوي الأرب وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق والزهرة البادية في جدوب ذات نسق» .

ويقول الرافعي إنه لم يجبر أبا العلاء المعري أحد على أن يقول هذا القول في إعجاز القرآن فهو لا يقول إلا ما يرى في نفسه وهو وإن كانت له آراء فيما وراء الطبيعة لا تستجيب الدين لكن إدراكه للبلاغة يجعله يقول الحق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالرافعي كما ترى يرفض فكرة معارضة المعري للقرآن من أصلها لأنه رد على ابن الراوندي بما سبق ويكذب القائلين بها . وليس من مانع في الحقيقة لأن يكون المعرّي فكر في معارضة القرآن وإمكانها في زمن ورأى عدم إمكانها في زمن آخر فالرأي يتغير بتغير الظروف والحالات العقلية والنفسية والمعري في كثير من المسائل الدينية والفلسفية لا يثبت على رأي واحد لأنه يقف في أكثر الأوقات منها موقف الحائر المتردد وقد يجعل الشك سبيلاً الى اليقين .

٤ً — الشريف المرتضى :

ألّف الشريف المرتضى (٤٣٦) كتاباً في الإعجاز ضاع ويقول عبد العليم المندي (في مقالته السابقة) فيه ماترجمته : « وضياع كتاب الشريف المرتضى موجب للأسف لأنه اشتهر شهرة عظيمة وقال بنظريته قبله النظام فقط . ولو ظفرنا به لرأينا أسلوبه في البرهان على مضمونها . وذكر بعض براهينه غيره من المؤلفين ومن حسن الحظ أن جزءاً من مؤلفه الخاص نفسه في هذا الموضوع لا يزال موجوداً . وكان من عادته أن يجيب على أسئلة تتعلق بالدين والألوهية من يراسله من الناس ولا تزال مجموعة من رسائله موجودة (CMS. Berlin Ret. 40) وتناقش اثنتان من هذه الرسائل هذه المسألة وتقف بها على آرائه وبراهينه (MS. Berlin Ret. 40. fol. 4 a - 56 and 926. 94 a) ويقول في موضع آخر من مقالته : « أما القول بالصرفة فكان له من السيد الشريف المرتضى بطل آخر وربما كان آخر رجل يرى أن معجزة القرآن هي فقط بالصرفة ونحن لا ندرك ما يتصل بأقواله في الموضوع لأن كتبه ضاعت ولكنه يذكر في إحدى رسائله (MS. Berlin Pet. 40. fo 46) أن الحجة الأولى هي أن الفرق بين الأقسام الصغيرة في القرآن وأحسن كتابات العرب ليس واضحاً لكل أحد بالرغم من أن الفرق بين كلام العرب الجيد وكلامهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الرديء واضح وهكذا يكون الطريق الوحيد للبرهان على إعجاز القرآن هو أن العرب لم يأتوا بمثله أو بتعبير آخر هو أن الله صرفهم عن ذلك . ثم يعلق عبد العليم الهندي على القول بالصرفة فيقول : « وهذا الدليل أي الصرفة يوجد عند المتكلمين من اهل الشيعة أكثر منه عند المتكلمين من أهل السنة ـ انظر القطب الراوندي (النصوص العربية) مما يثبت ارتباط هؤلاء الشيعة النظريين بالمعتزلة وبخاصة المتقدمين منهم » .

وقال الرافعي من غير إشارة الى المصدر : « وقال المرتضي من الشيعة : (بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يحتاج اليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن) فكأنه يقول إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني إذ لم يكونوا اهل علم ولا كان العلم في زمنهم وهذا رأي بيّن الخلط كما ترى » (ص ١٤٤ إعجاز القرآن للرافعي) .

ونلاحظ أن بسط الرافعي رأي المرتضى خطأ لأن معنى سلبهم العلوم أنها كانت موجودة فيهم فتكون الصرفة بسلبهم العلوم والرافعي فسره بأنهم لم يكونوا بطبيعتهم عارفين بهذه العلوم فإذن لم يسلبهم الله شيئاً فأين الصرفة إذن ويظهر أن سبب هذا الخطأ أن الرافعي فهم من معنى العلوم غير ما يقصده منها المرتضى من أنها العلوم المساعدة على نظم الكلام .

ونلاحظ فرقاً دقيقاً بين رأي النظام في الصرفة ورأي المرتضى فالصرفة عند عند النظام عدم معارضتهم للقرآن مع قدرتهم عليها والصرفة عند المرتضى عدم قدرتهم عليها لأنهم سلبوا مقوماتها وما يساعدهم من المعارف عليها بعد أن كانت متأصلة فيهم وقد لاحظ عبد العليم الهندي أن الشريف المرتضى ربما كان آخر من يقول في إعجاز القرآن بالصرفة وحدها دون سبب آخر وليس ذلك صحيحاً فمن الحق أن أكثر من قال بها بعده قد جمعها مع مسألة النظم كالأصفهاني ولكن الخفاجي مثلاً يقول بها فقط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٥ ـ داعي الدعاة :

وفي هذا الزمن نرى معاصراً لأبي العلاء المعري هو داعي الدعاة [ابوالنصر هبة الله الشيرازي الملقب بالمؤيّد في الدين] يردّ على دعاوى ابن الراوندي في القرآن ويسعى لإبطالها وقد رأينا أن ابن الراوندي لا يرى عجز العرب عن مجاراة القرآن حين تحدّاهم النبيّ دليلاً على النبوة وأن الفصاحة إذا ألزمت العرب بالإعجاز فهي لا تلزم الأعاجم .

ذكر الأستاذ كراوس (في مجلة الأديب ص ٣٢ سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٤م) أن داعي الدعاة قال في ردّه : « إن الكلام ألفاظ مقدّرة على معانٍ ملائمة لها . والكلام كالجسد والمعنى فيه روحه . ومعلوم أن الأجساد من حيث كونها أجساداً لاتتفاوت تفاوتاً كثيراً . فإنها وإن رجح بعضها على بعض من حيث استقامة النظم وحسن المندام فهو أمر قريب ، وليس كذلك التفاوت من جهة النفوس التي هي المعاني . فإن نفساً واحدة تقع بوزان الخلق كلهم من حيث افتقار النفوس اليها والحاجة الى الامتيار منها . والقرآن كلام هو بمثابة الجسد . ومعناه روحه الذي كنى الله عنه بالحكمة فلم يذكره في موضع من الكتاب إلا قرنه بالحكمة . وقد قاربت أيها الخصم بالإقرار بكونه معجزاً من حيث لفظه للعرب الذين هم أهل اللسان ثم أردفته بقولك : « فما الحجة على العجم الذين ليسوا من اللسان في شيء » . فنقول إن في معناه المكنيّ عنه بالحكمة ما تقوم به الحجة على كل من تفتق بالكلام لسانه على جميع اللغات وسائر العبارات . والحجة فيه أن ما كان ظاهره الذي هو بمنزلة الجسد الذي لا يتفاوت بعضه عن بعض كثير التفاوت بهذه المثابة من الإعجاز فما يقال في معناه الذي هو بمنزلة نفس شريفة ؟ تفتقر النفوس اليها كلها فأين موقعها من الإعجاز ؟

ونستنتج من هذا النص أن الإعجاز عند داعي الدعاة قائم على المعنى أكثر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

منه على الألفاظ والمعنى عنده هو روح الكتاب الكريم وهو الحكمة فإذا كان القرآن معجزاً للعرب بألفاظه فهو معجز للأعاجم بمعانيه التي هي روح تلك الألفاظ وبهذا يردّ على طعن ابن الراوندي في إعجاز القرآن .

٦ً — الباقلاّني :

ألّف القاضي الباقلاّني (٤٠٣) كتاباً مشهوراً في الإعجاز ردّاً على الحركة التي قامت في عهده تعاكس فكرة إعجاز القرآن وسدّاً لتواني علماء عصره في هذا البحث . وهو عالم من علماء التوحيد ومن أتباع الأشعري وتلاميذ العباس بن مجاهد الطائي الذي كان تلميذاً لذلك الإمام الكبير . ولم يصلنا من مؤلفاته إلا هذا الكتاب وهو خير الكتب التي ألفت في موضوع الإعجاز الى عصره . فقد تعرض فيه الكاتب للنظريات التي قيلت قبله في الإعجاز ونقدها . ثم صوّر حال أهل عصره من حيث عقيدتهم في الدين وفي إعجاز القرآن وبلاغته بصورة خاصة وحاذر من ضعف الدين وفكرة الإعجاز في النفوس . ولما كان للكتاب شأن كبير في تاريخ الفكرة فإني أرى حاجة ماسة الى تلخيص الأفكار والآراء المهمة التي وردت فيه لا سيما وأن المؤلفين بعده قد احتذوا في الغالب مثاله في التأليف . ويتلخص ما أورده فيما يلي :

١ً — أن القرآن في نفسه حجة للنبوة ومعجزة وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات والشك في المشاهدات ويورد من القرآن ما يؤيده في هذا المعنى . وهي حجة عامة سبقه اليها غيره من المتكلمين .

٢ً — يذكر ما حداه على تأليف كتابه من طعن الملاحدة في القرآن وتسويته بالشعر وتقصير العلماء في الدفاع عن الإعجاز بكتب كافية مما جعل الناس يظنون أنه لا مؤيد لهذه الفكرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ً — يذكر أن الجاحظ سبق الى وضع كتاب في نظم القرآن ولكنه غير كاف لأنه لم يزد فيه على ما قال المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى . ولكنه لا يذكر كتب الواسطي والرماني والخطابي الذين سبقوه .

٤ً — كان الرأي السائد في عصره أن القرآن معجز لمعاصري النبي من العرب دون سواهم وهو يقول بأنه معجز لكل عصر ويكفي أن نقارنه بغيره من الكلام في كل عصر لنتبين فضله في ذلك (ص ٣ — ٥ من كتابه الإعجاز) .

٥ً — يذكر أثر القرآن في نفوس سامعيه ويستشهد بآيات من القرآن في هذا المعنى ويذكر أنه لا تثبت على عدم إعجازه حجة وأن القرآن تحدى العرب بما هو من لسانهم العربي ولم يأت بأعجمي (ص ٦ من الكتاب المذكور) .

٦ً — القرآن وحده معجز ببلاغته من بين الكتب المنزلة لأن نظمها ليس معجزاً وإعجازها من ناحية إخبارها عن الغيوب فقط وإعجاز القرآن ببيانه يذهب مذاهب سماع الكلام من القديم سبحانه والنبي يعلم أن ما يوحى اليه كلام الله على طريق الاستدلال وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه من هذا على وجه الاستدلال .

٧ً — إذا ثبت أن القرآن معجز وأن الخلق لا يقدرون عليه ثبت أن الذي أتى به غيرهم وأنه إنما يختص بالقدرة عليه من يختص بالقدرة عليهم وأنه صدق ونلتقي هذه النقطة مع الأولى (ص ٩ و ١٠ منه) .

٨ً — الدليل على أن العرب لم يأتوا بمثله النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ويرد على من يقولون بأن العرب ربما لم يعلموا أن النبي تحداهم وأن النبي كتم آيات التحدي عنهم ويسعى ليثبت أن النبي قد بلّغهم إياها وأن في القرآن ما يدل على أنهم ردّوا على التحدي بتهمة أن القرآن مخلوق .

٩ً — يورد آيات يجمل بها أقوال المشركين في القرآن وآيات تدل على أنهم كانوا يجادلون (ص ١١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٠ً — يحتج بأنه لو كان في استطاعة العرب يومئذ الإتيان بمثله لقدموه من أشعارهم ونثرهم وقارنوه بالقرآن ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

١١ً — يدرك إعجاز القرآن من كان متناهياً في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة ويذكر (ص ١٤) قصة عتبة بن ربيعة حينما سمع النبي يقرأ سورة السجدة وقصة ابي سفيان حين جاء النبي مسلماً .

١٢ً — يرد على القائلين بالصرفة ويقول لو كان الأمر كذلك لرأينا مثله في نظم أهل الجاهلية أو من بعدهم وإنما إعجازه لشيء فيه من حسن النظم والبلاغة ولو كان الإعجاز بالصرفة لم يكن القرآن معجزاً بل المنع هو الذي يكون معجزاً (ص ١٥) .

١٣ً — يذكر جملة أقوال لمن تكلموا في إعجاز القرآن اوردها صاحب الاتقان ويذكر قول القائلين بأنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب وأنه يصح من كل منهما على حدٍّ واحد . (ص ١٧ إعجاز القرآن للباقلاني) .

١٤ً — يذكر أن علة إعجاز القرآن البياني التفاوت العظيم في النظم (ص ١٧) الموجود في اللغة العربية دون غيرها لأنها محتملة لوجوه من التلوّن في التعبير وفي دلالة الكلمات والترادف لا توجد في غيرها .

١٥ً — يذكر أن بعضهم قال بمعارضة ابن المقفع للقرآن ويقول إن كتابه الدرة اليتيمة ليس فيه فضل لابن المقفع والحِكَم فيه لأسلافه ثم يذكر أنه استحيا لنفسه ومزّقها (ص ١٧) .

١٦ً — يتعرض للإعجاز على طريقة علماء الكلام فيتساءل أكان ذلك لأنه حكاية عن الكلام القديم او لأنه تعبير (عبارة) عنه او لأنه قديم في نفسه ويقول في الرد على ذلك : لسنا نقول بأن الحروف قديمة ولا بأنه حكاية عن الكلام القديم . فيكون رأيه إذن أنه تعبير عن الكلام القديم .

١٧ً — يقول ادّعى جماعة أنه شعر ومن الملحدة من زعم أن فيه شعراً ومن أهل الملة من يقول إنه كلام مسجع إلا أنه أفصح مما اعتادوه من أسجاعهم.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنهم من يدّعي أنه كلام موزون فلا يخرج ذلك عن أصناف مايتعارفونه من الخطاب .

١٨ً — يذكر أن ممن ذهب الى ان القرآن غير معجز النظام وعبّاد بن سليمان وهشاماً القرظي (ص ١٦) . ونحن نعلم أنهم يقولون بالصرفة لا بعدم إعجازه مطلقاً .

١٩ً — البديع ليس سبباً في الإعجاز لأنه كثير في شعر ابي تمام وفي استطاعة البشر ان يحذقوه . (الصفحة والكتاب نفسها) .

٢٠ً — يدرك غير العربي إعجاز القرآن باطّلاعه على عجز العرب عنه . ونرى الباقلاّني يدعو للنظر في نصوص القرآن وغيره من ضروب الكلام في اللغة العربية لمعرفة الفرق بينها وهنا يقول إنه ليس في وسع من لا يعرف العربية ولا من تعلمها ولكن لم يصل فيها الى درجة العلم العميق بالنواحي الدقيقة أن يحكم في هذه المسألة ولكن يجب ان يعتمد على من يستطيع التفريق بين الأسلوب العادي والأسلوب المعجز . ثم يقارن الباقلاّني بين القرآن ورسائل النبي ليبيّن فرق ما بينهما في البلاغة وأن النبي عاجز عن مثل القرآن ، وهذا يثبت أنه من لدن الله ثم يقارن بين أقوال الصحابة وغيرهم من المتقدمين وبين القرآن فيثبت عجزهم عن مثل أسلوبه ثم يبين سخف كلام مسيلمة وسجاح ثم يتناول الأشعار ليقارن بينها وبين القرآن وليقول أن الشعر دون النثر في جودة الأسلوب لأنه مقيد بالوزن والقافية وان ليس هناك داع الى مقارنة الشعر بالقرآن لأن أسلوب الشعر دون أسلوب النثر — ونحن نخالفه في هذا الرأي — ثم يذكر أنه إنما لجأ الى مقارنة الشعر بالقرآن لأن قوماً من الجهال يقارنونهما .

ثم يقارن معلقة امرئ القيس أحسن شعرائهم بالقرآن ويبين ما في الاثنين من جمال وما في المعلقة من عيوب ويترك الحكم في هذا الأمر لكل من كان عنده ذوق من الذوق الفني ثم يقارن شعراء عصره بالقرآن فقد يدّعي أحدهم أنه أشعر من امرئ القيس زوراً وبهتاناً . ونحن نخالفه أيضاً في تقديم شعر الأوائل . وقد استغرقت هذه المقارنات نحو نصف الكتاب وينظر بعد ذلك الى أشياء صغيرة تتلخص فيما يلي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١ً — هل إعجاز القرآن واضح بنفسه؟ ٢ً — ما هو سبب إعجاز القرآن ٣ً — على أي سند يقوم؟ ٤ً — مسألة التحدي ٥ً — المدلول الصحيح لكلمة معجز ٦ً — لماذا لا يصح أن يقال إن القرآن من تأليف النبي .

ثم يذكر شؤوناً أخرى تتعلق بالإعجاز ويأتي بقسم منفصل عن البحث يأتي فيه بأنواع مختلفة من الكلام وأمثلة لها من القرآن ويقول في جملة ما يقول إن الكتابة في هذا الموضوع خطيرة وإنه ليس في مقدور بشر أن يحصر نواحي الجمال الموجود في القرآن .

٢١ً — يتعرض لمقدار المعجز من القرآن (ص ١١٧ من كتابه) ويذكر قول أبي الحسن الأشعري وعامة أصحابه في أن أقل المعجز أصغر سورة وقول من شرط الآيات الكثيرة في القدر المعجز ونراه يوافق على رأي الأشعري في أن مقدار المعجز هو أصغر سورة ويقول إن تحدي القرآن بقوله «فليأتوا بحديث مثله» لا يخالف هذا لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة ولأنه يحتمل أن يكون المراد بحديث مثله القبيل دون التفصيل .

٢٢ً — تتلخص وجوه إعجاز القرآن في رأي الباقلاني في ثلاثة براهين وهو مخالف رأي الصرفة . وهذه البراهين الثلاثة هي :

آ — احتواء القرآن على تنبؤات عن المستقبل وهذا خارج عن قدرة البشر .

ب — كون النبي كان أمياً أمر مسلم به وهو لم يطلع على كتب الأقدمين وقصصهم وتراجمهم ومع هذا فقد ذكر الحوادث الماضية منذ خلق آدم حتى زمنه فليس من منصرف عن القول بأنه تلقى كل هذا رأساً من الله عن طريق الوحي .

ج — القرآن يتجاوز قدرة البشر في النظم والأسلوب والبلاغة .

وهذا ما ذكره من تقدموه ويرجع اليه فضل التفصيل فيه وهو قد اعتنى بالتوسع في البرهان الثالث فذكر الأمور الآتية :

١ً — أسلوب القرآن على اختلاف أشكاله خارج عن الاساليب المعروفة وخاصٌ به .

٢ً — لم يوجد عند العرب أثر أدبي يجاري القرآن في بلاغته بحيث يحفظ فيه جمال الأسلوب ويكون في طوله بقدر القرآن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٣ً — عرض القرآن لموضوعات شتى في الحكم والأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص وكل ما جاء به حتى لا يقارن به أحسن الأشعار والخطب . وانما يجيد الشعراء والخطباء في نوع منها وقد أجاد القرآن فيها كلها .

٤ً — نرى أن أقسام الكلام تتفاوت في كتابة أحسن الأدباء حتى اذا كتبوا في موضوع واحد وبخاصة عندما ينتقلون من فكرة الى أخرى ونرى القرآن على خلاف ذلك يجمع النواحي المختلفة فيبرزها بطريقة تظهر فيها أنها وحدة منسجمة .

٥ً — أسلوب القرآن ليس أعلى فقط من أسلوب الإنس بل من أسلوب الجن أيضاً ويقول بهذا الصدد : ربما قال بعض الناس كيف نحكم بهذا فليس إلا مجرد ادعاء لأنه ليس بين أيدينا كلامهم فيقال نحن متأكدون على الأقل من أن أسلوب القرآن أرفع من أسلوب الكلام الذي ينسبه العرب الى الجن .

٦ً — أساليب الأداء المختلفة الموجودة في كلام العرب من بسط وإيجاز وجمع وتفريق واستعارة وتصريح موجودة في القرآن وهي في القرآن أعلى من تلك اذا قورنت بها .

٧ً — تأليف كلام في رأي جديد أصعب من تأليف كلمات في رأي مألوف والقرآن يعبر عن أفكار جديدة بطريقة تفوق قدرة البشر .

٨ً — تظهر جودة نظم القرآن وسمو بلاغته إذا أخذت كلمة منه واستعملتها في كلام آخر شعر أو نثر وتسترعى انتباه القارئ والسامع وقد بدمج البلغاء الجملة من القرآن في كلامهم فتأتي فيه كالجواهر والحلي .

٩ً — إن حروف الألف باء هي ٢٨ حرفاً والمقاطع التي ابتدئ بها بهذه الحروف في القرآن هي ٢٨ وعدد الحروف المستعملة في هذه البدايات (١٤) أي نصف عدد هذه المقاطع وقد صنف العلماء الحروف فيما بعد في زمن متأخر الى حروف حلقية وغير حلقية ومهموسة ومجهورة ومطبقة ومنفتحة وشديدة وغير شديدة وعدد الحروف المستعمل في هذه البدايات من كل نوع من هذه الأنواع هو نصف عدد النوع فهذا التصنيف في كل هذه الأصناف دليل على معرفة أمور المستقبل معرفة لا يتأتى صدورها إلا من الله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١٠ — لغة القرآن سهلة ومدلولاتها تفهم على أيسر وجه ولا تتخللها كلمات أو تراكيب عويصة ومع ذلك فليس في الإمكان مجاراة أسلوبه .

وخصّ الباقلاّني بقية كتابه بالتوسع في هذه الأمور يوردها منظمة حسنة التسلسل والتنظيم قوية الارتباط والكتاب يعدّ بحقّ الحلقة الوسطى في سلسلة الأبحاث التي تسعى لإثبات إعجاز القرآن . والتصانيف الأخرى التي تحمل أفكار سابقيه تنتهي اليه ثم تتفرع منه في شعب مختلفة .

وتتبين من تلخيصنا له قيمته وشمول بحثه والمامه بما قيل حتى زمنه وتناوله لأكثر الآراء بالنقد ويظهر لك من مقارنة المؤلف بين ما ينسبه العرب الى الجن من أقوال وبين القرآن ثم من قوله بفكرة التنصيف في حروف أوائل السور أنه يتناول الأمور أحياناً تناولاً سطحياً لا نوافقه عليه لأنه بعيد عن الروح العلمية التي لا تثبت لها مثل هذه الآراء ، وتدرك أن النظريات الاسلامية في الإعجاز قد أخذت في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس نوعاً من الاستقرار سرى على الأعصر التالية فإن علم الكلام كان قد تكامل في هذا الوقت وجهود المتكلمين المتأخرين انتهت الى هذا البناء الذي تم وضعه .

ينتقد الرافعي كتاب الباقلاني (ص ١٥٥ إعجاز القرآن للرافعي) برغم اعترافه بعظم شأنه بما انتقد به الباقلاّني الجاحظ فيقول : «على أن كتاب الباقلاّني وإن كان فيه الجيد الكثير وكان الرجل قد هذّبه وصفّاه وتصنع له إلا أنه لم يملك فيه بادرة غلبها هو من غيره ولم يتحاشَ وجهاً من التأليف لم يرضه من سواه وخرج كتابه كما قال هو في كتاب الجاحظ : «فلم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى ومرجع الإعجاز فيه الى الكلام والى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول ... وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل ... واستراح الى النقل» وهو يذكر أنه لم يقم بما أخذ على نفسه القيام به ولكنه لا ينكر قيمة الكتاب من حيث وفاؤه بما قصد اليه من أمهات المسائل .

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net